المَشْرُوعُ وَالمَمْنُوعُ مِنَ التَّوَسُّلِ

تأليف

الدكتور عبد السلام بن برجس العبد الكريم
رحمه الله تعالى
١٣٨٧هـ - ١٤٢٥هـ

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

الطَّبعَةُ الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام
ص . ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

المَشْرُوعُ والمَمْنُوعُ مِنَ التَّوَسُّلُ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمةٌ في
بيانِ عِظَمِ أَمْرِ التَّوحيدِ
وكَيْفَ دبَّ الشِّرْكُ في الأُمَّة

الحمد لله وصلَّى الله وسلَّم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أمَّا بعد: فإنَّ الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يتركهم هملاً، لم يخلقهم ليستكثر بهم من قِلَّة، ولا ليستقوي بهم من ضعفٍ، وإنَّما خلقهم لأمرٍ عظيم، وخطبٍ جسيم، سخَّر لهم من أجله السَّماءَ والأرضَ، وما تقوم به حياتُهم. خلقهم ليعبدوه وليوحِّدوه وليُفْرِدوه بكلِّ أنواع العبادة التي يحبّها اللَّهُ تعالى ويرضاها قولاً وفعلاً واعتقاداً.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

ولعظم هذا الأمرِ، وأهمِّيتِهِ؛ أَنزل الله به كتبه، وبعث به رسله، كما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ولقد كان الناسُ أوّلَ الأمرِ على الفطرة السليمةِ، والمنهج المستقيم، لا يعبدون إلاَّ اللّٰهَ تعالى، فلمَّا دَبَّ إِليهم داءُ الشِّركِ باللّٰهِ، أَرسل اللّٰهُ الرُّسل لينهوا عن الشرك، وليدعوا الناس إلى عبادةِ اللّٰهِ وحده، كما قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾.

وفي قراءة ابن مسعود وأُبَـيٍّ بن كعب: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾.

قال الله عزَّ وجل: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾.

وقال تعالى ــ أيضاً ــ في بيان حال الناس أَوَّل الأمر: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

فـإنَّ آدم عليـه السـلام لمَّـا مـات، بقـي أولادُه عشـرةَ قـرونٍ بعـده علـى ديـن أبيهـم، ديـن الإسـلام، ثـمَّ كفـروا بعـد ذلـك، وسببُ كفرهم: الغلوُّ في حبِّ الصالحين، كما ذكر اللَّـهُ تعالى في قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا

﴿سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾.

وذلك أنَّ هؤلاءِ الخمسةَ قومٌ صالحون، كانوا يأمرونهم وينهونهم، فماتوا في شهرٍ، فخاف أصحابُهُمْ من نقص الدِّين بعدهم، فصوَّروا صورة كلّ رجلٍ في مجلسه، لأجل التَّذكرةِ بأقوالهم وأعمالهم إذا رأوا صورهم. ولم يعبدوهم.

ثمَّ حدث قرنٌ آخر، فعظَّموهم أَشدَّ من تعظيم مَنْ قبلهم، ولم يعبدوهم.

ثمَّ طال الزَّمان، ومات أهلُ العلم.

فلمَّا خَلَتِ الأرض من العلماء: أَلقى الشَّيطانُ في قلوب الجُهَّال: أنَّ أولئك الصالحين ما صوَّروا صور مشايخهم إلاَّ ليستشفعوا بهم إلى الله، فعبدوهم.

فلمَّا فعلوا ذلك: أرسل الله إليهم نوحاً عليه السَّلام ليردّهم إلى دين آدم وذرِّيَّته، الذين مضوا قبل التَّبديل، فكان من أَمرهم ما قصَّ الله في كتابه.

ثـمَّ عَمَـرَ نـوحٌ وأَهـلُ السَّفينـة الأرضَ، وبارك اللَّـهُ فيهم، وانتشـروا في الأرض أُمماً، وبقوا على الإسلام مدَّةً لا ندري ما قدرها؟

ثمَّ حَدَثَ الشرك، فأَرسل اللَّـهُ الرُّسلَ، وما من أمَّـةٍ إلاَّ وقـد بعث الله فيهـا رسولاً يأمرهم بالتَّوحيد، وينهاهم عن الشرك.

وهنـاك كثيـرٌ مـن الرُّسـل وأُممهم لا نعـرفهم، لأنَّ الله لم يخبرنا عنهم، كما قال تعالى: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾.

لكن أخبرنـا الله عن عـادٍ، التي لم يخلـق مثلها في البلاد. فبعث الله إليهم هوداً عليه السَّلام فكان من أَمرهم ما قصَّ اللَّـهُ في كتابه.

وبقـي التوحيـد في أصحـاب هودٍ إلى أن عدم بعد مدَّةٍ، لا ندري كم هي.

ثـمَّ بَعَثَ اللَّـهُ إبراهيـم عليـه السـلام، وليـس علـى وجـه الأرض يـومئـذٍ مسلـمٌ، فجـرى عليـه

من قومه ما جرى، وآمنت به امرأتُهُ سارة، ثم آمن له لوطٌ عليه السلام.

ومنذ ظهر إبراهيم عليه السلام؛ لم يُعْدَم التوحيدُ في ذرِّيَّته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وكان عليه السلام في أرض العراق، وبعد ما جرى عليه من قومه ما جرى هاجر إلى الشام واستوطنها، إلى أن مات فيها.

ولقد وهبته امرأتُه سارة جاريةً لها هي هاجر، فواقَعها، فولدت له إسماعيل عليه السلام، فغارت سارة، فأَمَر الله بإبعاد هاجر عنها، فذهب بها وبابنها فأَسكنها في مكَّة.

ثمَّ بعد ذلك وهب الله له ولسارَّة: إسحاق، ومن وراء إسحاق: يعقوب.

وقصَّته عليه السلام مفصَّلةٌ في الصَّحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وأصبحت ولاية البيت ومكَّة لإسماعيل عليه السلام، ثمَّ لذرِّيَّته من بعده، وانتشرت ذرِّيَّته في الحجاز، وكثروا، وكانوا على الإسلام دين إبراهيم وإسماعيل قروناً كثيرة. ولم يزالوا على ذلك حتَّى نشأ فيهم عمرو بن لُحَيّ، فابتدعَ الشرك، وغيَّر دين إبراهيم.

وقصَّتُهُ: أنَّه نشأ على أمرٍ عظيمٍ من المعروف والصَّدَقة، والحرص على أُمور الدِّين؛ فأَحبَّهُ النَّاس حبّاً عظيماً، ودانوا له لأجل ذلك، حتَّى ملَّكوه عليهم، فصار ملكَ مكَّة، وولايةُ البيتِ بيده، وظنُّوا أنَّه من أَكابر العلماء، وأَفاضل الأولياء.

ثمَّ إنَّه سافر إلى الشَّام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنَّهُ حقّاً؛ لأنَّ الشام محلُّ الرُّسلِ والكتب، فلهم الفضيلة بذلك على أهل الحجاز وغيرهم؛ فرجع إلى مكَّة، وقَدِمَ معه بِهُبَل، وجعله في جوفِ الكعبة، ودعا أهل مكَّة إلى الشِّرك بالله، فأَجابوه.

وأهل الحجاز في دينهم تبعٌ لأهلِ مكّة، لأنَّهم وُلاةُ البيتِ وأَهلُ الحرم؛ فتبعهم أهل الحجاز على ذلك، ظنّاً أنّه الحقّ.

وكانت الجاهلية على ذلك، وفيهم بقايا من دين إبراهيم لم يتركوه كلّه، ويظنُّون ــ أيضاً ــ أنَّ ما هُم عليه، وأنَّ ما أحدثه عمرو: بدعةٌ حسنة، لا تغيِّر دين إبراهم.

وكانت تلبية نزار: (لبّيكَ لا شريكَ لك، إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك).

ومن أقدم أصنامهم «مناة»، وكان منصوباً على ساحل البحر بقُديد، تعظِّمه العربُ كلها، لكن الأوس والخزرج كانوا أَشدَّ تعظيماً له من غيرهم.

ثمَّ اتخذوا «اللاَّت» في الطائف، وقيل إنَّ أصله رجل صالح كان يلتُّ السويق للحاج، فمات، فعكفوا على قبره.

ثمَّ اتَّخذوا «العُزّى» بوادي نخلة، بين مكَّة والطائف.

فهذه الثلاثة أكبر أوثانهم.

ثمَّ كثر الشِّرك، وكثرت الأصنام والأوثان في كلِّ بقعة من الحجاز.

فأَرسل اللَّهُ سبحانه محمَّداً ﷺ ليخرجهم من الظُّلماتِ إلى النُّور، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

أرسله اللَّهُ سبحانه بالتَّحذير من الشرك والدَّعوةِ إلى التَّوحيد، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾.

معنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: ينذر عن الشرك ويدعو إلى التَّوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، أي: عظِّمْهُ بالتَّوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، أي: طَهِّر أعمالك عن الشِّرك،

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾: الرجز: الأصنام، وهجرها: تركها والبراءة منها ومن أهلها.

فلمَّا أَنذر ﷺ الناس استجاب له القليل، وأمَّا الأكثر، فكما قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾﴾، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾، أي: أخبر عن اللَّهِ تعالى في شرعه وأمره كما أخبر المرسلون قبله، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾.

ثمَّ جرى على النبي ﷺ ما هو معلومٌ من سيرته وأخباره الشريفة، إلى أن أظهره الله، وأكمل له الدِّين، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾.

فتوفي رسول الله ﷺ وقد ترك أُمَّته على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك.

قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: (لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائرٌ جناحيه في السَّماء إلاَّ ذكر لنا منه علماً). رواه أحمد، والطبراني وزاد: (قال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيءٌ يقرِّبُ من الجنَّة ويباعد من النَّار إلاَّ وقد بيِّن لكم»).

ولقد أَخبر النبي ﷺ أُمَّتَهُ عمَّا يكون إلى قيام السَّاعة، كما قال حذيفة رضي الله عنه: (قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام السَّاعة إلاَّ حدَّث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه). أخرجه البخاري ومسلم.

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: (صلَّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلَّى الظهر، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، فنزل فصلَّى العصر، ثم صعد فخطبنا حتى غربت الشَّمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمُنا أحفظُنا).

ومن ذلك أنَّ النبيّ ﷺ أَخبر عن رجوع الشرك إلى هذه الأمَّة عند آخر الزمانِ، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تقوم السَّاعة حتى تضطرب أليات نساءِ دوسٍ حول ذي الخَلَصَة» أخرجه البخاري ومسلم، وذو الخَلَصَةِ صَنَمٌ تعبدها دوسٌ في الجاهلية بِتَبَالَةَ، وهي موضع باليمن.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب اللَّيل والنَّهار حتَّى تعبد اللاَّت والعزَّى». رواه مسلم.

وهذان الحديثان يوجبان على المسلم شدَّة الحذر من الوقوع في الإشراك بالله تعالى. فإنَّه فتنةٌ عظيمة، تضرَّع الأنبياء إلى الله تعالى في دفعه عنهم وتجنيبهم إيَّاه.

قال الله تعالى عن إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾.

فإذا كان الخليل إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة وحده وابتلاه بكلمات فأتمهن، وقال عنه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾، وأُمِرَ بذبح ولده فامتثل أمر ربِّه، وكسَّر الأصنام واشتدَّ نكيره على أهل الشِّرك ومع ذلك يخافُ أن يقع في الشِّرك الذي هو عبادة الأصنام؛ لعلمه أنَّه لا يصرفه عنه إلاَّ الله بهدايته وتوفيقه، لا بحوله هو وقوّته. فما هو حال غيره من الناس؟

ورحم الله إبراهيم التيمي إذْ يقول: ومن يأمن البلاءَ بعد إبراهيم؟

فالشِّرك أمر لا يؤمن الوقوع فيه.

وقد وقع فيه أُناسٌ من الأذكياء في هذه الأمَّة بعد القرون المفضّلة، فبنيت المساجد والمشاهد على القبور وصرفت لها العبادات بأنواعها، واتَّخذ ذلك ديناً، وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح.

والشِّرك الأكبر إنَّما يقع بوقوع مُقَدِّماته ووسائله، حتَّى إذا اعتقدها النَّاسُ ديناً نقلهم الشَّيطان

إلى عبادة الأصنام والأوثان ــ المشاهد والقبور ونحوها ــ من دون الله تعالى فوقعوا في الشِّرك الذي لا يغفر اللَّهُ لصاحبه.

ومن هنا فإنَّ الاهتمام بمعرفة الشِّرك ووسائله هو سبيل مَنْ خاف على نَفْسِه وبنيه وأهله الوقوعَ في ذلك.

والنَّاسُ في حاجة مَاسَّةٍ إلى تكثيف الطرح العلمي لهذه المسائل، وذلك لعظم فشوِّها وكثرةِ المخدوعين بها في أكثر أنحاء الأرض.

ومن هنا جاءت محاضرة هذه اللَّيلة، بالعنوان الذي سمعتم: «**التوسل: أحكامه وأنواعه**». وهو موضوعٌ في غايةِ الأهميَّةِ، يجدر بالمسلم والمسلمة معرفتُهُ وتَفَهُّمُهُ، إذِ الجهلُ بِهِ سببٌ رئيسٌ لتفشِّي الشِّرك بنوعيه الأكبر والأصغر.

كما أنَّ هذا الموضوعَ قد امتدَّتْ يَدُ بعض أهلِ الأهواء إليه، فَعَبَثَتْ بِهِ، حيث دعت إلى الإشراك بالله

تعـالى تحت مسمَّى التَّوسُّـلِ؛ فضلُّـوا وأضلُّـوا كثيراً وضلُّوا عن سواء السَّبيل.

ولا عاصم من الوقوع في حبائل هؤلاءِ إلَّا اللَّـٰهُ وحده، ثمَّ العلمُ الشرعي الذي هو جُنَّةٌ من كلِّ ضلالة وحماية من كلِّ بدعة؛ فـ «من يردِ اللَّـٰهُ بِهِ خيراً يفقِّهه في الدِّين»، فالتفقُّهُ في هذا الموضوعِ أمرٌ محمودٌ؛ بِهِ يَسْلَـمُ المسلـمُ مـن الشُّبَـهِ الخطَّافة فيه، وبِـهِ يحمل سلاحَ العلم الذي يضرب بـه هام أهل الأهواء، وبِـهِ يعبد اللَّـٰهَ على بصيرةٍ من دينه.

وفي هذه المحاضرة سوف أَتقدَّمُ إليكم أيُّها الأحِبَّـة ببعـض المعلومـات المهمَّـة في هـذا الباب، سائلاً المولى جلَّ وعلا الإعانة والتوفيق.

* * *

معنى التَّوسُّل لغةً وشرعاً

إنَّ أول عناصر هذه المحاضرة الكلامُ على معنى التَّوسُّلِ في لغـةِ العربِ وفي كـلام الشارع. إذْ إنَّ أكثـر من ضَلَّ في هذا الباب إنَّما ضَلَّ بسببِ عدم معرفة معنى التَّوسُّـل في لغـة العرب وفـي كـلام الشـارع، فَجَعَـلَ للتَّوَسُّـلِ معنًى غيـرَ واردٍ في اللّغـة غيـر واردٍ فـي كلام الشرع؛ فوقع في الهلكة.

فالتَّوسُّل في كلام العربِ له معانٍ:

منهـا: أنَّ التَّـوسُّـلَ هـو التقـرُّب. فالوسيلـة: القـربـة؛ قـال فـي القـامـوس: «وسَّـل إلـى الله تعـالـى توسيلاً: عَمِلَ عملاً تقرَّبَ بِهِ إليه، كتوسَّلَ».

وهذا المعنى هـو الذي يخصُّ موضـوعنا هـذا فلنقتصر عليه.

والتَّوسُّلُ في كلام الشرعِ ورد في آيتين من كتاب الله تعالى:

الأولى في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

والآية الثانية في سورة الإسراء وهي قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

فما معنى التَّوسُّل في هاتين الآيتين:

أمَّا الآية الأولى فإنَّ معنى الوسيلة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾: القُرْبَةُ، قاله ابن عبَّاس، وعطاء، ومجاهد، والفرَّاء.

وقال قتادةُ: تَقَرَّبوا إليه بما يرضيه.

قال أبـو عبيدة: يقال: تَوَسَّلْتُ إليـه أي تقَرَّبْتُ إليه، وأَنشد:

إذا غَفَلَ الـواشـون عـدنـا لِـوَصْلنـا
وعـاد التَّصـافـي بيننـا والـوسـائـل

وقيل: معنى الوسيلة: **المحبَّـة**. قاله ابن زيد. فالمعنى تَحَبَّبوا إلى الله.

وهـذا ليس اختـلاف تَضـادٍّ بل اختلاف تنوُّع؛ لأن التحبُّـبَ إلى الله تعـالى نوعٌ مـن أنـواع التقـرُّب إليه.

فالخلاصة أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، أي: اطلبـوا مـا يقرِّبكم إليـه من طاعته سبحانه.

وهذا المعنى لا خلاف بين المفسِّرين فيه، كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى.

أمّا الآية الثانية فإنَّ معنى قوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، أي: يـطلبـون إلـى ربِّهـم القـربـة

بالطاعة. كما في «تفسير الجلالين» وغيره من التفاسير.

فتبيَّن بهذا أنَّ المعنى الشرعي للوسيلة هي القربةُ. وهي كذلك في لغة العرب.

* * *

إذا عُلِمَ هذا، فإنَّ بَعْضَ الناسِ أَخطأ في تفسير كلمة «الوسيلة» مما فَتَحَ بَابَ شرٍّ عظيم على المسلمين في عقائدهم.

فقد ذكر العلاَّمة الشنقيطي رحمه الله: أنَّ بعضَ الصوفيةِ فَسَّر الوسيلة في الآية الكريمة من سورة المائدة بأنَّها: (الشيخُ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربّه)!!!.

وهذا ضلالٌ عميم وافتراءٌ مبين وتَقَوُّلٌ على اللّهِ ربِّ العالمين.

ومن النَّاس من يعتقد أنَّ الوسيلة هي ذواتُ الأنبياء والصَّالحين والأولياء. وكلُّ هذا باطِلٌ لا أثارةَ من علمٍ عليه.

وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير الوسيلة تُبيِّنُ أنَّ تفسير الوسيلة بالشيخ أو بالذوات، خطأ كبير، لا يقرُّه الشَّرع المطهَّر ولا يرضاه.

وبيانُ ذلك أنَّ السلف متَّفقون جميعاً على أنَّ الوسيلة في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هي القربةُ إلى الله بطاعته. وكذا في قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

شروط صحَّة العبادة:

والقربةُ إلى الله تعالى يُشترط فيها أَمرانِ نصَّ عليهما كتابُ ربنا تبارك وتعالى، وسنَّة نبيّنا محمَّد ﷺ، واتَّفق عليهما سَلفُ هذه الأمة:

الأمر الأول: الإخلاصُ لله تعالى في هذه القربة. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾، وقال: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١٤﴾.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يقول الله تبارك وتعالى: «أَنا أَغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملاً أَشرك فيه معي غيري تركته وشريكه». وخَرَّجه ابن ماجه، ولفظه: «فأنا منه بريء، وهو للّذي أَشرك».

الأمر الثاني: أن تكون هذه القربة ممَّا كان عليه رسول الله ﷺ. فكلُّ عبادةٍ لم يفعلها رسول الله ﷺ ولم يشْرَعها فليست ممَّا يتقرَّبُ بِهِ إلى الله تعالى، وإن كان القائمُ بها صحيحَ النيَّة مخلصاً لله تبارك وتعالى؛ لأنَّ الله تعالى تَعَبَّدنا بما شرعه تعالى على لسان رسوله ﷺ لا بما رأَتْهُ أَذهاننا ومالت إليه أهواؤنا.

قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحدث في

أمرنا هـذا ما ليس منـه فهو ردٌّ»، وفـي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أَمرنا فهو ردٌّ».

فالمتقرِّب إلى الله تعالى بعبادةٍ ليس عليها أمر النبـيّ ﷺ خاسِرٌ آثـم، ولو كـان مخلصاً لله سبحانـه وتعالى.

وقـد أَخـرج البيهقي وغيـره: عـن سعيـد بـن المسيب رحمـه الله أنَّه رأى رجـلاً يصلِّي بعـد طلـوع الفجـر أكثر مـن ركعتين يكثـر فيهما الركوع والسجود فنهـاه. فقـال: يـا أبـا محمد: يعـذِّبني اللَّـهُ عـلى الصَّـلاة؟ فقال ابـن المسيب: لا ولكـن يعذِّبك عـلى خلاف السُّنَّة.

* * *

إذا عُلِمَ مـا تَقَدَّم فننظـر إلى كلِّ توسُّل هل توفَّر فيـه هذان الأمرانِ أم لا؟ هل فيه إخلاصٌ لله، هل هـو مِمَّا كان عليه أَمر النبـيّ ﷺ أم لا؟

* * *

أقسام التَّوسُّل

ننتقل إلى فقرةٍ أُخرى في هذا الموضوع، هي: أنَّ التَّوسُّلَ يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْن: توسُّلٌ مشروع، وتوسُّلٌ ممنوع.

فما هو التَّوسُّلُ المشروع وما أَدِلَّته؟ وما هو التَّوسُّل الممنوع وما أَدِلَّةُ منعه؟

التَّوسُّلُ المشروع:

أمَّا التَّوسُّل المشروع: فإنَّنا نعلم أنَّ الله أَمَرَنا أن ندعوه وحده لا شريك له. وأنَّ الدُّعاءَ عبادة عظيمة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وقال:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

وقد شَرَع الله تعالى لنا أن ندعوهُ على صِيَغٍ متعدِّدةٍ:

١ ـ فَأَمَرَنا تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، فنقول ـ مثلاً ـ: اللَّهم إنِّي أسألك بأنَّك أنت الله لا إله إلاَّ أنت الحيُّ القيوم أن تغفر لي ذنوبي، أو تقيل عثرتي، أو تشفي مريضي...

٢ ـ وشرع تعالى لنا أن ندعوه بالأعمال الصالحة التي قمنا بها، فنقول مثلاً: اللَّهم بإيماني بك وتصديقي برسولك محمَّد ﷺ واتِّباعي له اغفر لي وارحمني، أو أَقِل عثرتي، أو اشفِ مريضي.

٣ ـ وشرع تعالى لنا نوعاً آخر في سؤاله تعالى: وهو أن نأتي إلى صالحٍ من الصالحين في حال حياتِهِ وحضرتِهِ، فنقول له: يا فلان، ادعُ الله لنا

أن يثبّتنا، أو يغفر لنا، أو يشفي مريضنا.. ونحو ذلك.

فهذه ـ أيُّها الأَحِبَّةُ ـ ثلاث صور نتوسَّلُ إلى الله تعالى بها في دعائنا، شرعها تعالى، وسَنَّها رسولنا محمَّد ﷺ.

إذن فالتَّوسُّلُ المشروع:

هو ما دَلَّ عليه دليلٌ من كتاب الله، أو سنَّة رسوله ﷺ.

وهنا قد يقول قائل: هل التَّوسُّلُ خاصٌّ بالدُّعاء، أم أنه يكون بالدُّعاء وغيره؟

والجواب: إنَّ التَّوسُّلَ هو التقرُّبُ إلى الله تعالى بكلِّ أنواع العبادة التي يحبُّها ويرضاها، ومنها الدُّعاء. فالدُّعاء وسيلة إلى الله. والخوف منه تعالى وسيلة إليه. والتوكُّل عليه تعالى وسيلة إليه.. وهكذا.

لكنْ لمَّا كانت الشُّبَه المثارة حولَ التَّوسُّلِ إنَّما

هي في الدعاءِ اُهتم أهل الحقِّ بهذا النوعِ من أنواع التَّوسُّلِ فبيَّنوا الجائز منه والممنوع.

فالتَّوسُّل المشروع في الدعاء أنواعٌ ثلاثة ــ كما تَقَدَّم ــ.

أمَّا الأول: فهو التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى وأفعاله الحميدة، وقد دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾.

ومثل الأسماء الحسنى: الصفاتُ العُلى، لأنَّ الاسم دالٌّ على الصفة التي اشتُقَّ منها.

وأسماء الله الحسنى غيرُ محصورةٍ بعددٍ، كما دلَّ عليه حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مسند الإمام أحمد ــ وغيره ــ أنَّ النبي ﷺ قال: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: (اللَّـهم إنِّي عبدك وابن عبدك وابن أَمَتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ

حكمك عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك سمَّيت بِهِ نفسك أو أنزلته في كتابك أو علَّمته أَحداً من خلقك أو استأثرت بِهِ في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همِّي) إلاَّ أَذهب الله حزنه وهمَّه وأَبدل مكانه فرحاً».

وهذا الحديث فيه التَّوسُّلُ إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى.

وقد كان الأنبياء والصالحون يتوسَّلون إلى الله بأسمائه وصفاته، كما قال تعالى عن عبده سليمان عليه السَّلام: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾، فهذا توسُّلٌ بالصفة.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن

نقـول: (اللَّهـم ربَّ السمـاوات والأرض وربَّ العـرش العظيـم ربَّنَـا وربَّ كـلِّ شـيء فالـقَ الحـبِّ والنـوى ومُنْـزِلَ التـوراة والإنجيـلِ والفـرقـان، أَعوذ بك مـن شـرِّ كـلِّ شـيء أَنـت آخـذٌ بناصيتـه، اللَّهم أَنـت الأوَّل فليس قبلـك شيءٌ وأَنـت الآخِـرُ فليس بعـدك شيء وأَنـت الظاهر فليس فوقـك شيء وأَنت الباطـن فليس دونـك شيءٌ، اقضِ عنَّـا الدَّيـن وأغننا من الفقر).

وفي جامـع الترمـذي عـن أَنس رضي الله عنـه أنَّ النبـيّ ﷺ قال: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام»، أي: الزموا هذه الصيغة في دعائكم وأَكثروا منها.

وفـي المسنـد والسنـن: عـن أَنـس رضـي الله عنـه أنَّه كان جالساً مع النبـيّ ﷺ ورجلٌ قائمٌ يصلِّي، فلمَّـا ركـع وسَجَـدَ وتَشَهَّـد، دعـا فقـال في دعائـه: (اللَّهم إنِّـي أَسألك بـأنَّ لـك الحمـدَ لا إله إلاَّ أَنـت المنَّـان، بـديـعُ السمـوات والأرض، يـا ذا الجـلال والإكـرام، يـا حيُّ يـا قيُّوم، إنِّي أسألـك...) فقال

النبي ﷺ لأصحابه: «أتدرون بما دعا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى». هذا لفظ النسائي.

وسمع النبيّ ﷺ رجلاً يقول في تشهُّده: (اللّهمَّ إني أَسألك يا اَللّهُ بأنك الواحدُ الأحدُ الصمدُ الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أَحدٌ أن تغفر لي ذنوبي إنَّك أنت الغفور الرحيم). فقال ﷺ: «قد غفر له»، ثلاثاً. أخرجه النسائي عن محجن بن الأدرع.

فهذه أمثلةٌ ــ والأمثلة كثيرة ــ على التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى. فعلى المسلمِ أنْ يلزم ذلك في دعائه فهو بها أَحرى للإجابة.

النوع الثاني من أنواع التوسُّل المشروعِ في الدعاء: **أن يتوسَّلَ المسلمُ إلى الله تعالى بعملٍ صالحٍ قد فَعَلَهُ:**

وأَدِلَّـةُ ذلـك كثيرة جـداً، منها قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾.

ومنهـا قـول الله تعـالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ومنهـا قولـه تعـالـى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

ومنهـا قولـه تعـالـى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وفي المسنـد وسنـن أبـي داود عـن بريـدة بـن الحصيب رضي الله عنـه قال: سمـع النبـيّ ﷺ رجلاً يقـول: (اللّٰهم إنّـي أسألك بأنّـي أَشهد أَنّك أنت الله لا إلـه إلاّ أنت الأحد الصَّمد الذي لم يلد ولم يولد ولـم يكـن لـه كفـواً أَحـد). فقـال: «قـد سـأل الله

باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب».

فهذا الرَّجل توسَّل إلى الله بعملٍ صالحٍ وهو شهادة الإخلاص، وكونه عليها قولاً وفعلاً واعتقاداً.

ومن هذا قصَّة أصحاب الغار التي رواها عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: وهي قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم حتَّى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه. فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدَّت عليهم الغار. فقالوا إنَّه لا ينجيكم من هذه الصَّخرةِ إلَّا أنْ تدعوا الله بصالح أعمالكم.

قال رجل منهم: اللّٰهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أَغبقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً ــ يعني من رقيق وخادمٍ ــ فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أُرِحْ عليهما ــ أي: أرجع عليهما ــ حتى ناما، فحلبتُ لهما غَبُوْقهما فوجدتهما نائمَيْن، فكرهتُ أن أوقظهما وأن أَغْبِقَ قبلهما أهلاً أو مالاً. فلبثتُ

والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى بَرَقَ الفجرُ والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما.

اللّهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِكَ ففرِّج عنَّا ما نحنُ فيه من هذه الصَّخرة.

فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

وقال الآخر: اللّهم إنه كانت لي ابنةُ عمٍّ كانت أحبَّ الناسِ إليَّ، فأردتها على نفسها فامتنعت منِّي. حتَّى أَلَمَّتَ بها سَنَةٌ من السِّنين. فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلِّي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها ــ وفي رواية: فلمَّا قعدتُ بين رجليها ــ قالت: اتَّق الله ولا تفضّ الخاتم إلاَّ بحقّه. فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها.

اللّهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافْرُج عنَّا ما نحن فيه.

فانفـرجت الصَّخـرة غيـر أنـهم لا يستـطيعـون الخروج منها.

وقـال الثـالـث: اللّـٰهـم استـأجـرتُ أُجـراءَ وأعطيتهـم أَجرهـم غيـرَ رجـلٍ واحـدٍ تـرك الذي لـه وذهـب. فثمَّـرْتُ أَجـره حتَّـى كثـرتْ منـه الأمـوال. فجاءني بعـد حين فقال: يـا عبـد الله، أَدِّ إليَّ أَجري. فقلت: كلّ ما ترى من أَجرك، من الإبل والبقر والغنم والرَّقيق. فقـال: يـا عبد الله لا تستهزىء بـي فقلت: إنِّي لا أَستهزىء بك، فأخذه كلّه فاستاقه فلم يترك منه شيئاً.

اللّـٰهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فَافْرُج عنَّا ما نحن فيه.

فانفرجـتِ الصَّخـرة فخرجـوا يمشون»، متفق عليه.

فهـذا دليـلٌ واضـحٌ فـي التَّوسُّلِ إلى الله تعـالى بالأعمال الصالحة؛ إذْ إنَّ هؤلاءِ النَّفر توسَّلوا إلى الله في حال الشِّدَّةِ بما أَسلفوا من أعمالٍ صالحةٍ.

حيث توسَّلَ الأوَّل ببرٍّ والديه والرَّأفة بهما والشَّفقة عليهما. وهذا من الأعمال التي أَمَرَ الله بها وحثَّ عليها، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

والثاني توسَّلَ إلى الله بالعِفَّة عن الزنا بعد ما قدر عليه من امرأةٍ شغفته حبّاً. وهذا من الأعمال الصالحة؛ قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

والثالث توسَّلَ إلى الله تعالى بحفظه للأمانة، وأدائه لها، وذلك بِحِفظ حقِّ الأجير وإيفائه إيَّاه دون نقصٍ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾.

فلمَّا فعلوا ذلك فرَّج الله كربتهم، وأزال عنهم الشِّدَّة التي وقعوا فيها.

وهذا فيه تنبيهٌ على فائدة التَّوسُّل إلى الله بالأعمال الصالحة، وهي: أنَّ ذلك أَحرى بالإجابة.

ومثل هذا يقال في التَّوسُّل إلى الله بأسمائه وصفاته: فإنَّ ذلك من أسباب إجابة الدُّعاء؛ ولذا فإنَّ

النبيّ ﷺ لمّا سمع الرَّجُل الذي يقول: (اللّٰهمَّ إني أسألك يا اللّٰهُ بأنَّك الواحد الأحد الصَّمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أَحد أن تغفر لي ذنوبي). فقال ﷺ: «قد غفر له» ثلاثاً.

النوع الثالث: التَّوسُّلُ إلى الله تعالى بدعاءِ أَحد الأحياء الحاضرين ممَّن عُرِف بالصَّلاح والاستقامة.

وأَدلَّة ذلك كثيرة في الكتاب والسُّنَّة.

منها: قول الله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾، فقد طلبوا من أبيهم يعقوب عليه السلام وهو حيٌّ حاضر أن يستغفر اللّٰهَ لهم.

ومثل هذا ما شُرِع للمؤمنين من إتيانهم النبيَّ ﷺ في حال حياته لأجل أن يستغفر الله لهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

وهـذا في حـال حياتـه، أمَّـا بَعْـدَ ممـاتـه فإنـه لا يجوز لنا أن نطلبَ منه أن يستغفر لنا، وإنَّما نَطْلُبُ من صالـحٍ حيٍّ حاضر. كمـا كان الصَّحابة رضي الله عنهـم يفعلـون ذلك، ولـذا فـإنَّ عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنـه طلب مـن العبَّـاس أن يدعـو الله لهـم، وذلك بعد موت النبـيّ ﷺ.

وممَّا يدلُّ على مشروعيَّة هذا النَّوع من التَّوسُّل حديث الأعرابـي الذي جاء إلى النبـيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، هلك المـال وجاع العيال فـادع الله لنا أن يغيثنا. فرفع النبـيّ ﷺ يديه يدعو.

وتـأمَّـل حـديـث أَنـس بـن مـالـك رضـي الله عنـه: أنَّ عمـر بـن الخطـاب رضـي الله عنـه كان إذا قُحِطـوا استسقـى بالعبَّاس بـن عبـد المطلب فقـال: (اللّـٰهم إنّـا كنَّا نتوسَّلُ إليك بنبيّنا ﷺ فتسقينا، وإنَّا نتوسَّلُ إليك بعمِّ نبيّنا فاسقنـا). قال: فيُسقون. رواه البخاري.

أي: فكـان العبَّـاس رضـي الله عنـه يدعـو الله فيُسقون.

فهذا الحديث فيـه دلالة على مشروعيَّـة الطلب من الحيِّ الحاضر الصالح أن يدعو اللَّـٰهَ تعالى لك.

ومن ذلك ما ثبت عن سليم بن عامر الخبائري أنَّ السَّمـاء قحطـت فخـرج معاويـة بـن أبـي سفيـان رضي الله عنـه وأهـلُ دمشـق يستسقـون. فلمَّـا قعـد معـاويـة علـى المنبـر قـال: أيـن يزيـد بـن الأسـود الجرشي؟ فناداه الناس. فأَقبل يتخطَّىٰ الناس. فأَمـره معاويـة، فصعـد المنبر، فقعـد ــ أي معاويـة ــ عند رجليه، فقال معاوية: (اللَّـٰهم إنَّا نستشفع إليك اليومَ بخيرنا وأَفضلنا. اللَّـٰهم نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود الجرشيِّ. يا يزيدُ اِرفع يديك إلى الله). فرفـع يديه، ورفع الناس أيديهم.

وفي هذا مـا يدلّ على مشروعيَّـة هذا النَّوع من التَّوسُّـل، حيـث طلـب معاويـة رضـي الله عنـه مـن يزيد بن الأسود وهو حاضر أن يدعو الله لهم.

ولذا، فإنَّ الفقهاء ينصُّون في صلاة الاستسقاء على استحباب التَّوسُّل بصالحٍ حيٍّ حاضر ليكون أَقربَ إلى الإجابةَ.

وبهذا القدر ننتهي من صور التَّوسُّل المشروع في باب الدُّعاء.

وكلُّه داخل تحت قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾.

* * *

التوسُّل المنوَّع شرعاً

ننتقل إلى القسم الثاني من أقسام التَّوسُّل، وهو التَّوسُّل الممنوع شرعاً:

وهو كلُّ توسُّلٍ لم يَقُمْ عليه دليل من كتاب الله أو سنَّةِ رسوله ﷺ.

ولنقتصر في التمثيل على ذلك بالتَّوسُّلات المتعلِّقة بالدُّعاءِ، فالتَّوسُّل غير المشروعِ كالتَّوسُّلِ إلى الله بذوات الأنبياء والرُّسل والصَّالحين من عباد الله: فتقول مثلاً: اللَّهم إنِّي أَتوسَّلُ إليك بنبيِّك محمَّدٍ ﷺ أو بأبي بكر أو بالشيخ فلان أن تغفر لي وترحمني.

وكذلك التَّوسُّل بالأماكن الفاضلة والأزمنة الفاضلة، فتقول: اللَّهم إنِّي أتوسَّل إليك بالكعبة،

واللّٰهم برمضان وليلة القدر أن تغفر لي . . ونحو ذلك .

فَكُلُّ هذه الصور محرَّمةٌ شرعاً، وهي من أَشرِّ البدع؛ إذْ لم يقم دليل من الكتاب أو السُّنَّة على مشروعيَّة شيءٍ منها .

وهذه هي التَّوسُّلات الواردة في الكتاب والسُّنَّة وما جاء عن سلف هذه الأمَّة ليس فيها توسُّلٌ إلى الله بذوات المخلوقين .

وهذا القول هو قولُ جماهير الأُمَّة :

يقول شيخ الإسلام في كتاب «الاستغاثة» : «ما زلتُ أَبحثُ وأَكشف ما أَمكنني من كلام السَّلف والأئمَّة والعلماءِ، هل جَوَّز أحدٌ منهم التَّوسُّل بالصَّالحين في الدُّعاء؟ أو فعل ذلك أحدٌ منهم؟ فما وجدته .

ثمَّ وقفتُ على فتياً للفقيه أبي محمد بن عبد السلام أَفتى بأنه : (لا يجوز التَّوسُّل بغير

النبـي ﷺ، وأمّـا النبـي فَجَـوَّزَ التَّـوسُّلَ بِـهِ إن صـحَّ الحديث في ذلك).

وهذا الذي ذهب إليه أبو محمَّد رحمه الله ليس بصحيـح؛ إذْ لم يسبقـه أحـدٌ مـن السَّلـف إلى هـذا، ودليله ليس بصريحٍ في المسألة كما سيأتي، بل ليس فيه دلالة على ما ذهب إليه.

وقد اشتدَّ إنكار أهل العلم للتَّوسُّل بالذواتِ:

فأبـو حنيفـة رحمـه الله تعـالى يقول: لا ينبغي لأحدٍ أنْ يدعو الله إلاَّ بِهِ.

والدُّعاءُ المأذون فيـه المأمور بِـهِ ما استُفيد من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾.

قال أبو يوسف رحمه الله: أكره أن يقول: بحقّ فلان، أو بحقّ أنبيائك ورُسلك، وبحقّ البيت الحرام والمشعر الحرام. اهـ.

قال القُدوري: المسألـة بخلقه لا تجوز؛ لأنَّـه لا حقّ للمخلوق على الخالق، فلا تجوز وفاقاً.

فهذا قولُ أئمَّة الحنفية رحمهم الله تعالى فلسنا نُحَرِّم التَّوسُّل بذوات المخلوقات وحدنا، وإنَّما هو قول أهل العلم قبلنا. ولولا خشية الإطالة لسُقْنا نصوصهم على نحو ما سقناه عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى.

* * *

الفرق بين التَّوسُّل بذوات المخلوقات إلى الله ودعاء المخلوق مـن دون الله تعالى

بقي مسألتان مهمَّتان:

الأولى: أنَّه يجـب التفريق بيـن التَّوسُّلِ بذوات المخلوقـات إلـى الله تعـالى وبيـن دعـاء المخلـوق وسؤاله من دون الله تعالى.

فمثـال التَّوَسُّـلِ بذات المخلوق أو بجاهـه أن يقـول القائل: اللَّـٰهم اغفـر لـي وارحمنـي وأَدخلنـي الجنَّة بنبيِّك محمَّد ﷺ أو بجاه نبيِّك محمَّد ﷺ فهذا بدعة ليس بِشِرْك.

فـإن كان المتوسَّل به غير النبـيِّ ﷺ فهـو شرك أَصغـر لا يخرج من المِلَّـة. كقوله: اللَّـٰهم بجاه العباس أو عبد القادر.. ونحو ذلك.

وأمَّا دعاء المخلوق كما يدعو الله تعالى، فيقول: يا رسول الله فَرِّج كربي، أو ٱقضي دَيْني، أو ٱشفِ مريضي: فهذا ليس توسُّلاً، وإنَّما هو شركٌ أَكبر يخرج صاحبه من المِلَّة؛ لأنَّ الدُّعاءَ عبادة، وصرف العبادة لغير الله شِرْك أَكبر بالإجماع؛ قال تعالى لنبيِّه محمَّد ﷺ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ

هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾.

فهـذا حكم مَـنْ دعـا غير الله فيمـا لا يقدر عليه إلاَّ الله سبحانه وتعالى. فلا يلتبس هذا بمسألة التَّوسُّل. فالتَّوسُّلُ شيءٌ ودعاء غير الله شيءٌ آخر.

المسألة الثانيـة: لا دليـل علـى جـواز التَّوسُّـل بذوات المخلوقات:

ليس مع من أَجاز التَّوسُّل بذوات المخلوقات دليـل سليم، فالأدلَّـة إمَّـا صحيـح غيـر صريـح بـل لا دلالة فيه. وإمَّا دليل غير صحيح من جهة الإسناد. فمن ذلك: الاستدلال على التَّوسُّلِ بالذوات بحديث أَنس رضي الله عنه في صحيح البخاري: أنَّ عمر بن الخطـاب رضـي الله عنـه كـان إذا قحطـوا استسقـى بالعبـاس بـن عبـد المطلب فقـال: (اللّٰهم إنّـا كنّـا

نتوسَّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنَّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبيّنا فاسقنا). قال: فيسقون.

فبعض الناس يعتقد أنَّ هذا التَّوسُّلَ هو بجاه العبَّاس، وهذا ليس بصحيح؛ بل هذا التَّوسُّلُ إنَّما هو بدعاء العبَّاس رضي الله عنه، كما كانوا مع النبي ﷺ؛ فإنَّ الصحابة كانوا يأتونه ﷺ في حال حياته ويتوسَّلون بِهِ، أي: يطلبون منه ﷺ أن يدعو الله لهم، كما جاء في حديث الأعرابيّ الذي جاء إلى المسجد يوم الجمعة والنبيّ ﷺ يخطب فطلب من النبيّ ﷺ أن يستسقي لهم فدعا الله فسقوا. ثمَّ جاء الأعرابيّ الجمعة التالية فشكى إلى النبيّ ﷺ انقطاع الطرق وتهدُّم المباني وطلب منه أن يدعو الله لهم ليمسك عنهم الأمطار...

فهذا هو التَّوسُّلُ المشروع.

وتأمَّل كيف عَدَلَ عمر رضي الله عنه عن التَّوسُّل بالنبيِّ ﷺ إلى التوسُّل بدعاء العبَّاس رضي الله عنه لعلمه أنَّ التَّوسُّل به ﷺ بعد موته متعذِّر، لأنَّ الدُّعاء

منـه ﷺ لله تعالى عبـادة، فهـي عمل قـد انقطع بعـد موته ﷺ.

وممَّـا يُبْطِـلُ حمل أَثـر عمـر رضي الله عنه هذا عـلى التَّوسُّـل بالجـاه: مـا ذكـره الحافـظ ابـن حجر رحمـه الله تعالى مـن صفة دعـاء العبَّاس، حيث ذكر الحـافـظ أنَّ: الـزبيـر بـن بكـار أخـرج فـي كتـاب «الأنساب» له: أنَّ العبَّاس لما استسقى به عمر قال: (اللَّهم إنَّـه لم ينـزل بـلاء إلاَّ بذنب ولـم يكشف إلاَّ بتوبة. وقد توجَّه القوم بـي إليك لمكاني من نبيّك. وهذه أَيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث).

هـذا هـو التَّوسُّل الـذي طلبـه عمـر وغيـره مـن الصَّحـابـة مـن العبَّـاس رضـي الله عنـه: طلبـوا منـه أن يدعو الله لهم. فكيف يقال: إنَّهم توسَّلوا إلى الله بجاه العبَّاس وذاته؟ حاشاهم من ذلك.

وقد أَخرج الإسماعيلي في «مستخرجه» على الصَّحيح هذا الحديث بلفظ: «كانوا إذا قحطوا على

عهـد النبـيّ ﷺ استسقـوا بـه، فيستسقـي لهـم، فيسقون، فلمَّا كان في إمارة عمر. . . » إلخ.

فهذا فيه دلالة صريحة على أنَّ توسُّلهم به ﷺ كان حال حياته.

ومـن الشبـه فـي هـذا المـوضـوع الاستـدلال بحـديث عثمان بـن حنيـف رضي الله عنه، وهو: أنَّ رَجُلاً ضرير البصر أَتى النبـيّ ﷺ. فقال: ٱدعُ الله أن يعـافيني. فقال: «إن شئت دعـوت لـك. وإن شئـت صبرت فهو خير لـك». فقال: ادعه. فأمره أن يتوضَّأ فيحسن وضوءه فيصلِّي ركعتين ويدعو بهذا الدُّعاء: (اللَّـٰهم إني أَسألك وأَتوجه إليك بنبيّك محمَّد نبـيّ الرَّحمـة. يـا محمَّد إنِّي توجَّهت بـك إلـى ربـي فـي حاجتي هـذه فَتُقْضَىٰ لـي، اللَّـٰهم فشفِّعْهُ فيَّ). قال: ففعـل الـرجـل فبـرأ. أخـرجـه أحمـد وغيـره بسنـد صحيح.

وهـذا الحـديث لا حجَّـة فيـه عـلى التَّـوسُّـل

بالذَّات: بل هو توسُّلٌ إلى الله بدعاءِ النبـيّ ﷺ حال حياته. وهو توسُّلٌ مشروع.

ويدلُّ على هذا أنَّ الأعمى جاء إلى النبـيّ ﷺ فقال: «ادعُ الله أن يعافيني».

ثـمّ إنَّ النبـي ﷺ وعـده بالدعـاء فقـال: «إن شئت دعوت لك وإن شئت...».

ثـم إنَّ الأعمـى أَصـرَّ عـلى النبـي ﷺ بطلـب الدُّعاء بقوله: «ادعه».

ثم ــ أيضاً ــ: قول الأعمى في دعائه (اللّٰهم فشفِّعْـهُ فيَّ) ينفـي التَّوسُّل بالـذات؛ إذ الشَّفاعـة هي الدُّعاء، والمعنى: اللّٰهم اقبل شفاعته ﷺ فيَّ، أي: دعاءه فيَّ.

وقد ورد في بعض روايات الحديث: (اللّٰهم فشفِّعْهُ فيَّ وشفِّعْني فيه) وكيف تكون شفاعة الأعمى لـه ﷺ؟! المعنى: اقبل سؤالي لـك في أن يشفع فيَّ نبيّك ﷺ.

فكـلُّ مـا تقـدَّم يـدلُّ عـلى أنَّ قـول الأعمـى: (اللَّـٰهمَّ إني أسألك وأتوجَّه إليك بنبيّك نبـيّ الرَّحمة) فيه محذوف، تقديره: أسألك وأَتوجَّه إليك بدعاء نبيّك عليه الصَّلاة والسَّلام.

* * *

ليس معنى القول بمنع التَّوسُّل بـذوات الأنبياء والصالحين أن ليس لهم قدر وجاه

أيُّها الأحِبَّة: إنَّ إنكارنا للتَّوسُّل به ﷺ بعد موته، وكذا التَّوسُّل بغيره من الأنبياء والصالحين، لا يعني أنَّنا نعتقد أن لا جاه لهم ولا قدر، أو أنَّنا نبغضهم ـ كما يقول المفترون ـ حاشا لله فهو ﷺ بأبـي وأُمي أَحَبُّ إلينا من أنفسنا وأهلينا وأموالنا. ومنزلته ﷺ منزلة رفيعة؛ إذْ لا يصحّ إيمان أَحدٍ إلاَّ بالإيمان به ﷺ ولا يصحّ إيمان أَحدٍ إلاَّ بمحبَّته ﷺ.

ولكن من محبَّتنا لرسولنا ﷺ أن لا نعبدَ الله إلاَّ بما شرَع لنا عليه الصَّلاة والسَّلام، وهو ﷺ قد حذَّرنا من الابتداع في الدِّين وأَمَرَنا بلزوم ما هو عليه ﷺ وصحابتُه رضي الله عنهم.

فالزِّيادة على ذلك هي النُّقصان والخسران، وهي التي تتضمَّن القَدْح في النبيّ ﷺ، وفي بيانه للشَّريعة المطهَّرة، التي أكملها الله تعالى على يديه الشريفتين.

فهذه العبارات التي تطلق؛ وهي: (أنَّ من لم يجوِّز التّوسُّل بِهِ ﷺ مبغضٌ له): افتراءٌ ودجل، يُراد به صرف الناس عن عبادة الله وحده، ومتابعة رسول الله ﷺ، إلى اتِّباع الأهواء والآراء والاستحسانات.

وخُذ صورةً واضحةً تبيِّن لك أنَّ تعظيم النبيّ ﷺ وتوقيره إنَّما يكون على ما جاء به الشَّرع لا ما أملاه الهوى، يقول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: (ما كان أحد أحبّ إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون من كراهته لذلك)، أخرجه الترمذي.

فالقيام فيه تعظيم للدَّاخل وإظهارُ المحبَّةِ له، ومع ذلك تركه الصَّحابة رضي الله عنهم لما يعلمون

مـن كراهيتـه ﷺ لذلـك. فهـل يقـال: إنَّ الصَّحابـة لا يحبُّونه ﷺ؟!. حاشاهم من ذلك.

ثمَّ إنَّـه عليـه الصَّلاة والسَّلام حذَّر من الغلوّ في الدِّين، وإطرائِه ﷺ إطراءً يفضي إلى الشرك بالله.

قال ﷺ: «لا تطروني كما أَطْرَت النَّصارى ابن مريم، إنَّما أنـا عبـد، فقولوا: عبـد اللَّـهِ ورسولـه». رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وصلَّـى الله وسلَّم عـلى نبيّنـا محمـد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

● ● ●